

في الرابطة مع الآخر.. إنصاف الناس



ـ "يريد الإسلام أن لا يفرض العدل على الإنسان من خارج، بل أن يتحرك من داخل، بأن يعدل عقلك وقلبك ويداك وحركتك مع الآخرين".

المنهج الأخلاقي الإسلامي:

في قاعدة الأخلاق الإسلامية أنّ الإسلام يعطي اهتماماً كبيراً في معنى الإيمان في العمق في العلاقة مع الآخر، فليس القضية فقط أن تعيش إيمانك، ولكن كيف يكون تعاملك مع الآخر، عندما تكون هناك مشكلة حقٌّ بينك وبينه، أو مشكلة قضائية تتعلق بك وبه.

لقد طرح الإسلام مسألة العدل واعتبره أساساً في عمق الدين، فالدين هو انطلاقه عدل ليقوم الناس بالقسط، وقصة العدل لابدّ أن تعيش في داخل نفسك في نظرتك إلى الآخر في كلّ شيء يتصل بك وبه ومن الناحية الشعورية والناحية الفكرية والناحية العملية.

وهذا هو الذي عقد له صاحب "الكافي" باباً تحت عنوان "الإنصاف والعدل" والسؤال هنا: كيف تكون عادلاً في نفسك في انتباحك على الآخر؟ هو بأن تنصف الآخر من نفسك، وأن تكون المنصف الذي يفرض الإنصاف على نفسه في الفكر والعاطفة والحركة قبل أن يفرضها عليه الآخرون، ولذلك يريد الإسلام من الإنسان أن لا يفرض عليه العدل من خارج، بل أن يتحرك من داخل، بأن يعدل عقلك ويعمل قلبك وتعمل يدك، وأن تعدل حركتك في كلّ درب تسير فيه مع الآخرين. هذه هي الفكرة، وهي أن تحاكم نفسك فيما للآخر من حقٍّ عليك، وأن تحاكمها في التدقيق فيما تعتبره من حقٍّ لك على الآخر، وأن تستعجل في أن تحكم بالحق لحسابك قبل تدقيق في أسس هذا الحق، كما أنّ عليك في الوقت نفسه أن تعرف ما هو حق الآخر عليك، وكيف يمكنك أن تعطيه حقه.

تعالوا إلى هذه المائدة النبوية الإمامية التي نتغذى منها بالأخلاق الإسلامية، حتى نستطيع من خلال ذلك أن نرتفع بـ إنسانيتنا في مجتمعنا ليكون مجتمعاً إنسانياً في أخلاقه وأن نكشف للإنسان الآخر، أنّك بمقدار ما تكون مسلماً أكثر، بمقدار ما تكون إنساناً أكثر، وبمقدار ما تكون إنساناً أكثر فإنّك تنفتح على قيم الإسلام أكثر.

فلنقرأ بعض ما جاءنا عن رسول الله (ص) وهو عندما يحذثنا فإنه لا يقتصر على مفردة أخلاقية، ولكنّه يضم المفردات بعضها إلى بعض حتى يعطي الإنسان شخصية متكاملة تنفتح على القيم الإسلامية في كل جانب من جوانبها.

يروي أبو حمزة الثمالي عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) أنّه قال: "كان رسول الله (ص) يقول في آخر خطبته طوبى لمن طاب خلقه" أي كان خلقه الطيب كلّه بحيث يتنفس الناس الطيب والطيبة من أخلاقه "وطهرت سجيّته" أي كانت طبيعته فيما يبني عليه نفسه الطهر، فلا قذارة في كلّ ما ترتكز عليه طبيعته وسجيّته.

"وصلحت سيرته والسيرة هي السرّ" أي تصلح ما تسرّه في نفسك وذلك بأن لا تحمل في نفسك للناس إلا كلّ صلاح وكلّ خير، "وحسنت علانيته" بأن يكون ظاهرك عندما تتعامل مع الناس وعندما تتحرك معهم وتعيش معهم حسناً تماماً كما هي سيرتك.

"فأنفق الفضل من ماله لأنّ ما يفضل من مالك جعل الله تعالى فيه حقاً لغيرك (وَفِي أَمْوَالِهِمْ >قُلْ لِلْمُحْمَدِ وَالْمَحْمُودِ) (الذاريات/ 19)، وأمسك الفضل من قوله وأما فضول القول فهو الذي لا ينفع الناس بل ربما يضرّك.

إنصاف الناس:

و محل الشاهد هو هذه الكلمة " وأنصف الناس من نفسه" ولعل الكلمة الأخيرة هي نتاج الكلمات السابقة، فإذا كان الإنسان طيب الخلق ظاهر السيرة صالح العلانية، يعطي من ماله ويمسك عن الناس الفضول، فمن الطبيعي أن تكون روحيته مع الناس روحية الإنسان الذي لا يظلم الناس عندما يكون لهم حق عليه سواء كان حقاً في الكلمة أو في الموضع أو في الموقف.

وكلمة أخرى، فلقد جاء إعرابي إلى النبي (ص) وهو يهم بالسير إلى بعض غزواته، فأخذ بغرز (بركات) راحلته، ومن هنا نعرف كيف كان الناس يتغامرون مع رسول الله (ص) من خلال ما اتفاق عليهم بكل بساطة وكلّ عفوية فلا يتخدرون معه بالرميّات ولا يتتكلّفون الكلمة أو الحركة معه "كان فيما كأحدنا" ولكنهم عندما تجاوزوا الحدّ أنزل الله تعالى: (لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءَ بَعْضَكُمْ بَعْضًا) (النور/ 63)، ولكنهم كانوا كذلك ولم يكن النبي (ص) يرى مشكلة في ذلك، فلاحظوا كيف تحدث هذا مع النبي وكيف تحدث معه النبي (ص) في نهاية المطاف.

"قال يا رسول الله: علّ مني عملاً أدخل به الجنّة، فقال: ما أحببت أن يأتيه الناس إليك فأتأهليهم" فماذا تنتظر وماذا تحب من الناس في التعامل معك في كلّ علاقتهم بك فافعل معهم، "وما كرهت أن يأتيه الناس إليك فلا تأته إليهم، خل سبيل الراحلة".

فلاحظوا كيف هي العفوية المنطلقة من هذا الرجل في خطابه للنبي (ص) وكيف هي العفوية في حديث النبي (ص) معه، وقيمة هذا الحديث أنّه يقول لهذا الرجل إنّ هذا العمل وهذه الروحية وهذا السلوك الإنساني مع الآخرين يمثل أحد الدروب التي تسلك بك إلى الجنّة، ونحن نعرف أنّ جائزة الجنة كبيرة فعلينا أن نتحمل كلّ الحساسيّات المضادة التي تمنعنا من أن ننفتح على الآخرين لنفكّر فيهم كما نفكّر في أنفسنا.

وهناك حديث آخر عن رسول الله (ص) يرويه الإمام محمد الباقر (ع) قال رسول الله (ص): "ثلاث خصال من كن" فيه أو واحدة منها كان في ظلّ عرش الله يوم لا ظلّ إلا ظله، رجل أعطى الناس من نفسه ما هو سائلاً لهم" أي أعطاهم من المشاعر ومن المواقف ومن المعاملة ما يطلب أن يعطوه مثله عندما يكون الحق له.

"ورجل لم يقدم رجلاً ولم يؤخر رجلاً حتى يعلم أن ذلك رضا" بحيث يكون كل سلوكه خارجاً من دائرة ذاته ومن انتلاقات شهواته وفق كل ما يتحدث الناس به من حوله، وذلك بأن تعتبر نفسك عبداً وأن الله يراقبك وأنه يحاسبك، فإذا جاءك الناس وأردوا منك أن تقدم رجلاً في مشروع معين أو في موقف معين قائلين: سر معنا يا فلان، ففكر قبل أن تأخذ بما يقوله الناس فيما هو موضع رضا الله في هذه الطرق التي تسير فيها، سواء كانت درب اجتماعياً يراد لك أن تقوم فيها بعمل اجتماعي، أو درب اقتصادياً يراد لك أن تعيش فيها على أساس معاملة اقتصادية، أو درباً سياسياً تزيد من خالقه أن تتخذ موقفاً سياسياً أو درباً حربياً، فلا بد أن تقدم رجلاً في الطريق التي تعرف أنها تسير بك إلى موقع رضا الله.

إذا أراد الناس لك أن تنسحب من موقف، وأن تتراجع عن مشروع معين فحاول أن تدرس هل أن يرضي بذلك، هل يريده أن تتفق حيث أنك أو أن تتقدم، فإذا أراد لك أن تتقدم فإن عليك أن لا تتراجع بعد أن تكون قد عرفت أن غضب الله في تراجعك.

"ورجل لم يعب أخاه المسلم بعيوب حتى ينفي ذلك العيب عن نفسه"، فإذا أردت أن تعيب الناس فخذ حرث يتك شريطة أنك إذا كنت تريده أن تعيب الناس بعيوب فلا تعبهم به إلا بعد أن تحرز من نفسك أنك سالم منه أو من عيب مماثل، فإذا كنت معموماً من العيوب فتحدث في عيوب الناس وواجههم بعيوبهم، أمّا إذا كانت عندك نفس العيوب أو كانت لك عيوب مماثلة فلماذا تشغله نفسك بعيوب الناس قبل أن تشغله نفسك بتطهير نفسك من كل هذه العيوب.

"فإنما لا ينفي منها عيوباً إلا بدا له عيب وكفى بالمرء شغالاً بنفسه عن الناس".

أربع كلمات:

ونبقى في هذا الجو لنزداد تعمقاً في هذا المفهوم "إنصاف الناس من نفسك" ففي الحديث عن الإمام الصادق (ع) في شأن آدم وهو في الأرض، قال: "أوحى الله عزوجل إلى آدم إنني سأجمع لك الكلام في أربع كلمات" أي أربع عناوين "قال: يا رب وما هن؟" قال: واحدة لي وواحدة لك وواحدة فيما بيني وبينك وواحدة فيما بينك وبين الناس لأن علاقات الإنسان تتوزع بين علاقته بما في حقه المطلق عليه، ولديه علاقة أخرى فيما بينه وبين الله فيما جعل له من حقه وفيما علىه من حقه، وهناك علاقة بينه وبين الناس.

"قال: يا رب بيـنـنـهـ لـيـ حـتـىـ أـعـلـمـهـنـ لـيـ فـتـعـبـدـنـيـ لـاـ تـشـرـكـ بـيـ شـيـئـاـ" وهذا حق الله المطلق على العباد في أن توجهه في فكرك وتوجهه في عقلك فلا يكون فيه إلا الله، وأن توجهه في قلبك فلا ينفتح قلبك بالحُب إلا الله، أما غير الله، من أنبياء وأولياء فإنهم يدخلون قلبك من طريق الله، وأن تكون موحداً في الطاعة والعبادة فلا تعبد غير الله ولا تطع غير الله.

"وأما التي لك: فأجزيك بعملك أحوج ما تكون إليه" فهي يوم القيمة (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالُ وَلَا بَنْوَنَ) (الشعراء/ 88)، (يَوْمَ يَفْرُرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخْرِيهِ * وَأُمَّهُ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنْيَهِ) (عبس/ 34-36)، (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ زَفْسُ لِنَفْسِ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (الانفطار/ 19)، في ذلك الوقت أجزيك، وأنت الفقير المحاج إلى أي شيء، بنتائج عملك (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) (الزلزلة/ 7)، (وَمَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ أَمْْثَالِهَا) (الأنعام/ 160)، (أَنَّهُ لَا أُضْرِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مَذْكُومٍ مِنْ ذَكَرِ أَوْ أُزْدَمِ) (آل عمران/ 195).

"وَأَمَا الَّتِي بَيْنِكَ وَبَيْنِكَ فَعَلَيْكَ الدُّعَاءُ وَعَلَيْهِ الْإِجَابَةُ" (وَقَالَ رَبُّكُمْ أَدْعُونَنِي أَسْتَجِيبُ لَكُمْ) (غافر/ 60).

"وَأَمَا الَّتِي بَيْنِكَ وَبَيْنِ النَّاسِ وَهُنَّا مَحْلٌ الشَّاهِدُ" ففترض للناس ما ترضى لنفسك وتكره لهم ما تكره لها" وهو معنى أن تتصف الناس من نفسك.

أشد الفروض:

وللإمام الصادق (ع) كلمة في هذا المجال، حيث يقول أحد أصحابه وهو "الحسن البزاز" قال: قال لي أبو عبد الله (ع) "ألا أخبرك بأشد ما فرض الله على خلقه (ثلاث) قلت: بلى، قال: إنما الناس من نفسك" فهذا مما فرضه الله على الخلق وهو من أصعب الأمور على النفس، لأن الإنسان عادة يعيش الأنانية فهو يحب للناس أن يعطوه ولا يحب لنفسه أن يعطي الناس لاسيما إذا كان الذي يريد أن يعطيه للناس من حق الناس عليه الذي قد يؤدي عنفوانه وقد يسيء إلى ماله، فمن أصعب الأمور أن ينصف الإنسان الناس من نفسه، فنحن نطلب من الناس الكثير، ولكن هل فكرنا أو نفكر فيما نقدمه للناس من هذا وغيره، إنما نفكر بأن نأخذ ولا نفكّر بأن نعطي، لذلك فإنّ عليك عندما تفكّر بعلاقتك مع الناس وفي أن تأخذ من الناس شيئاً، أن تفكّر فيما تعطي للناس في قياله، فالقمة في هذه الروحية هو الإمام زين العابدين (ع) عندما كان يقول وهو ابن رسول الله (ص): "ما أحب أن أخذ برسول الله مالا أعطي مثله" فعندما أريد للناس أن يعطّموني ويكرّموني لأنني أنتسب إلى هذا النسب العظيم فعليّ أن أقدم من عملي ومن مالي ومن جهدي ومن كل مشاعري للناس ما يقابل ذلك.

"ومواساتك أخاك" في المال وعندما يحتاج إليك أن تقدم له من نفسك ما يلبي حاجاته حتى لو لم يسألوك، وهذه من أصعب الأمور على الإنسان لأنّه بخييل بطبعه، فهو يفكّر فيما أعطيه الله من مال بالفقر فيما لو أنفق منه، وهذا ما تحدث به أولئك الذين كانوا يقولون (أَنْطَعْمَهُ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) (يس/ 47)، وما ذاك إلا لأنّ (اللَّهُ يَطَانُ يَعْدُكُمُ الْفَقَرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُمَّ يَعْدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا) (البقرة/ 268).

ثم قال: "وذكر الله في كل موطنه" وربما يقول قائل: ما هي المشكلة في ذكر الله، فما عليك إلا أن تمسك المسبيحة وأن تقول ألف مرّة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله وأكبر، فكيف يكون ذلك من أشد ما افترض الله علينا، بينما يقول (ع): "أما إنني لا أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله وأكبر" فذكر الله ليس ذكر اللسان ولكنه ذكر العقل والقلب وال موقف وإن كان هذا من ذاك فهو ذكر أيضاً: "ولكن ذكر الله عزوجل في كل موطنه إذا هممت على طاعة أو على معصية" فإذا وقفت أمام الطاعة وقالت لك نفسك آخرها، أهملها، اقضها، فاذكر ربك واذكر ما ينتظرك من ثواب الطاعة عند ربك وما تخسره من هذا الثواب إذا لم تطعه. وعندما تواجه المعصية وكانت كل الظروف مهيأة لك، فاذكر الله، اذكري الله بكل كيانك ليمنعك ذكره عن أن تتهاون في موضع طاعته أو أن تتهاون في موضع معصيته.

أقرب الخلق إلى الله:

ونختم الحديث بقول الإمام الصادق (ع) قال: "ثلاثة هم أقرب الخلق إلى الله عزوجل يوم القيمة حتى يفرغ من الحساب" ومننا لا يحب أن يكون من أقرب الخلق إلى الله، ونحن دائمًا نصلّي ونقول: قريبة إلى الله، نصوم قربة إلى الله، ونحو قربة إلى الله، فنحن نعيش هذه التربية الروحية في نية العبادة بأأن نقترب بها إلى الله ليقربنا الله تعالى إليه، وهذه الخصال الثلاث لا تقربنا إلى الله فحسب بل يجعلنا أقرب الخلق إليه.

"رجل لم تدعه قدرته في حال غضبه إلى أن يحيف على من تحت يده" فأنت تملك القوة في بيتك وزوجتك تحت يدك حسب ميزان القوى بين الرجل والمرأة في مجتمعنا، وقد تغضب عليها أو قد تأتي غاضباً من الناس وتدخل بيتك فتحاول أن تفجر غضبك على من تحت يدك، أي على زوجتك وأولادك وعلى الصغار من جيرانك، أو أن تكون صاحب سلطة وتحاول أن تفجر غضبك على من هم تحت سلطتك أو صاحب عمل أو تجارة، وتحاول أن تستغل قدرتك على العمالة الذين تحت يدك أو الموظفين الذين تحت يدك لتتعسف في التعامل معهم وتحاول أن تثور عليهم، فإذا استطعت أن تمسك نفسك فتذكر ربّك عند غضبك وتذكر حق

الناس عليك في أن لا تجور عليهم حتى لو كانوا في موقع الضعف وأنت في موقع القوة، عند ذلك تكون من أقرب الناس إلى الله سبحانه وتعالي، ولكن دون ذلك خطر القتاد (إِنَّ إِلَهَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَكُونُ إِلَّا هُوَ) (العلق/ 6-7).

"ورجلٌ متشي بين اثنين" مصلحاً أو حاكماً "فلم يمل مع أحدهما على الآخر بشعرة" حتى لو كان أحدهما قريباً إليك والآخر عدواً لك (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُلُوا وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ رَبِّي) (الأنعام/ 152)، (وَلَا يَجُرْ مَنْدَكُمْ شَدَّآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدُلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلْمُتَّقِّوِي) (المائدة/ 8).

والثالث "ورجل قال الحق" فيما له وفيما عليه" فإذا كان الحق" لك فقله لا من موقع أزنه لك ولكن من موقع أزنه الحق، وإذا كان الحق لغيرك فقله ليكون لك شجاعة إيمانك في الاعتراف بحق غيرك، والإيمان هو بطولة وشجاعة عندما تستطيع أن تجاهد نفسك لحساب ربلك وذلك هو الجهاد الأكبر، (وَفِي ذَلِكَ فَلَيَتَنَذَّرَ الْمُتَّنَذَّرَ فَسُونَ) (المطففين/ 26).

علينا أن نربي عقولنا وقلوبنا ومشاعرنا وأحاسيسنا وحوارتنا على المعاني الإنسانية التي تحصي إنسانيتنا وتحعل الحياة عندنا جنة مصغرة على الأرض لأنّ أهل الجنة هم الذين يعيشون الصفاء والتتصا في (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَّقَّبِلِينَ) (الحجر/ 47)، فلا يعقد أحدهم على الآخر بل ينفتحون على بعضهم البعض، فلماذا لا نجرّب أن نجعل بعض مجتمعاتنا وبعض أرضتنا جنة ولو بنسبة 1% لأنّنا كما نتدرّب على الهندسة ونتدريب على التجارة ونتدريب على الحرب لنتدرّب أيضاً على العيش في الجنة أما عندما نموت وقلوبنا مملؤة بالحقد، وعندما نلاقي الله وكل حياتنا تتحرك في الظلّم فكيف يمكن لنا أن ندخل الجنة.

فرّغ قلبك من كلّ حقد، فرّغ حياتك من كلّ ظلم، فرّغ نفسك من كلّ ما يسيء إلى عباد الله، عند ذلك تكون من أهل الجنة بحيث تعيش في الدنيا السعادة الروحية التي يعيشها أهل الجنة ولكن في جنة الدنيا قبل جنة الآخرة. ▶